
القادة الأبرار
الإمام علي الرضا (ع)

القادة الأبرار

الإمام علي الرضا (ع)



الدار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



كورنيش المزرعة، بناية الحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧
فرع ثاني: حارة حريك، شارع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
ص.ب: ١٤٥٦٨ - تلكس: ٢٣٢١٢ - غدير

الإمام علي الرضا (ع)

الاسم : الإمام علي الرضا (ع)
اسم الأب : الإمام موسى الكاظم (ع)
اسم الأم : أم البنين
تاريخ الولادة: ١١ ذي القعدة سنة ١٤٨ للهجرة
محل الولادة: المدينة
تاريخ الاستشهاد: ٢٩ صفر سنة ٢٠٣ للهجرة
محل الاستشهاد: طوس
محل الدفن : مشهد

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الكاظِمُ والرِّضا (ع) وهارونُ الرَّشيدُ

إنَّ مِنَ السَّهلِ عَلينا اليومَ أنْ نَسمعَ باسْمِ «هارونَ الـرّشيـدِ» العبّـاسِيِّ، وأنْ نَستَمِـعَ إلى قِصَّتِـه، أمّـا في عهدِه فلمْ يكنْ الأمرُ كَذلكَ. فقدْ كانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ اسمِـهِ كافِياً لِتَنْخَلِعَ القُلوبُ خَـوفاً وتَجمُـدَ الأنفاسُ رُعْبـاً، لِمَا عُـرِفَ عنهُ مِنْ قَسـوةٍ وبَطشٍ بَـالِغَينِ. وكـانَ الـرَّشيـدُ يَحكُمُ دَولـةً إسلامِيَّـةً كَبيرةً تَمتَـدُّ مِنَ الهِنْدِ شَرقـاً إلى المُحيط الأَطْلَسِيِّ غَـربـاً. وكـانَ يَعتَبِـرُ نفْسَـهُ خَليفَـةً لِلمُسلمينَ، لكنَّـه كانَ يُـدرِكُ في قَـرارَةِ نفسِـه أنَّ هـذا المَقـامَ ليسَ من حَقِّهِ، بـلْ مِنْ حقِّ رجلٍ آخـرَ يَرجُـحُ أهلَ عَصرِه عِلماً ومَعرفـةً، وتُقىً وصَلاحـاً، هوَ الإمـامُ مُوسى الكاظِمُ عليهِ السَّلامُ، لِـذا فقدْ كـانَ يَطوي قلبَـهُ على أشَـدِّ البُغضِ والعِداءِ لَـهُ ولِأُسرَتِـهِ من العَلَوِيّينَ. واسْتَـطَاعَ أَخيراً أنْ يَـرمِيَ بـهِ في سُجـونِـهِ، يَتَنَقَّـلُ بـهِ ـ خلالَ عِشرينَ سنـةً ـ منْ سِجنٍ إلى آخَرَ، حتّى جَـرُؤَ

أخيــراً على دَسِّ السُّمِّ في طَعـامِــه والتّخلُّصِ منــهُ. وأقسمَ منــذُ ذاكَ أنْ يَضــرِبَ عُنُقَ أيِّ امْــرِئٍ مـنْ آلِ أبي طالبٍ يَدّعِي الإِمـامةَ بعـدَ مُوسى بنِ جَعفرٍ عليْهِما السّـلامُ، حتّى يَسْتَأْصِـلَ شَـأْفَـةَ الإمـامـةَ (أيْ أصلَهـا) بالكاملِ ، ومِنَ الجُذورِ، لكنْ هَيْهاتَ، فَاللهُ مُتِمُّ نُـورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرون.

كانَ الإمامُ الكاظمُ عليهِ السّلامُ قد أوْصى بالإِمامَةِ لابنِهِ الإمامِ عليٍّ الـرِّضا (ع)، ومـا إنْ اسْتُشْهِدَ الإمـامُ حتّى أعلنَ الـرِّضـا عليــهِ السّـلامُ أمــرَهُ على رُؤوسِ الأشْهـادِ، وأنَّهُ الـوصيُّ بعدَ أبيـهِ، غيرَ عـابِئٍ بهارونَ وغيـره من الطُّغـاةِ، مُظْهِـراً دَعوتَـهُ إلى اللهِ عَلَنـاً ودونَ تَرَدُّدٍ، واثِقاً منْ عَوْنِ اللهِ؛ فخَافَ عليهِ أصحابُهُ، وقالَ لهُ أحدُهُـم وهو مُحمَّدُ بنُ سِنان:

يا أَبا الحَسَنِ، إنَّكَ قد شَهَرْتَ نَفْسَكَ بِهذا الأَمْرِ، وجَلَسْتَ مَجلِسَ أبيكَ، وسيفُ هارونَ يَقْطُرُ الدَّمَ!

فقال عليهِ السّلامُ:

جَــرّأَني على ذَلــكَ مــا قــالَ رســولُ اللهِ(ص) لأصْحابِهِ، (لمّا أمرَهُ اللهُ تَعالى أنْ يُنذِرَ عَشيرَتَهُ الأقْرَبينَ ويَجهَـر بـدَعـوَتـه)، قـالَ رسـولُ اللهِ (ص): إنْ أَخَـذَ



أبو جَهل من رَأسي شَعرةً واحِدةً، فاشْهدُوا بـأنّي لستُ بِنَبِيٍّ. وأَنا أقولُ لكم: إنْ أخذَ هارونُ من رأسي شَعْرةً فأنا لستُ بإمامٍ.

كان البرامِكةُ منْ أشدِّ النّاسِ تَحريضاً على الإمامِ الـرِّضا، بعـد أنْ نَسَجُوا خُيـوطَ مُؤامَـرَتِهم على أبيـهِ، مُسْتَغلّين حِقْدَ ابْنِ أخيهِ عَليٍّ بن إسماعيلَ وحَسَدَهُ لِعَمِّهِ الإمـامِ الكاظمِ (ع)، وشَـرَعُوا الآنَ يُعِيـدونَ تَـآمُـرَهُمْ على ابنِهِ الرِّضا عليهِ السّلامُ.

قالَ يَحيي بنُ خالدٍ البَرمَكيُّ للرَّشيدِ يَومـاً يُحَرِّضُـهُ على الإمام:

هـذا عليُّ بنُ موسى قَـدْ قَعَدَ مَكـانَ أبيـهِ، وادَّعى الأمْرَ لِنفسِه، وَقَدْ أَقْسَمْتَ أَنْ تقتُلَ كُلَّ مَنْ يَدَّعي لِنفْسِهِ الإمَـامَةَ بَعْـدَهُ. فقالَ الـرَّشيدُ غـاضِباً: أَوَمـا يَكْفِينَـا مـا صَنَعْنابأَبيهِ بالأَمسِ، أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَهُمْ جَمِيعاً؟!

هذهِ الكَلماتُ من الرَّشيدِ تَدُلُّ على أنَّهُ كانَ يُحِسُّ بـإثمِ مـا ارْتَكَبَـهُ مَـعَ الإمَـامِ الكـاظِمِ (ع)، ولكنَّ هـذا لـم يَمْـنَعْـهُ مِـنْ مُحَـاولَـةِ الـتَّخَـلُّصِ مِنَ الـرِّضـا (ع)، وتَكـرَّرَتْ مُحَـاولاتُـه؛ لكنَّ إرادةَ

اللهِ كـانتْ تَحُـولُ بَيَنَـهُ وبينَ مـا يُــريـدُ. قــالَ الإمَـامُ يَـوماً وهُـوَ يَعْني الرَّشيـدَ: واللهِ لا يُمكِنُـهُ أن يَعمـلَ بي شَيئـاً أكرَهُـهْ، لِكَلمـاتٍ وَقَعَتْ إليَّ منْ جَـدّي رَسـولِ اللهِ (ص).

إنَّ اللهَ القـديرَ مُصَـرِّفَ الأمورِ هَيَّـأَ للإمـام الرِّضـا الحِمايَةَ من جَوْرِ هارونَ الرَّشيدِ، كما هَيَّأَ الحِمايَةَ لِبيتِ الإمامةِ فِي مَوقِعَةِ كَـرْبلاءَ، وَوَهَبَ النَّجـاةَ للإمـامِ زَينِ العَابِدينَ مِنْ سُيوفِ الظَّالمينَ.

وهلكَ هارونُ الرَّشيدُ بعدَ أنْ أوصى بالحُكْمِ لابنِهِ الأَمينِ، ومِنْ بَعدِهِ لأخيهِ المأمونِ.

انصـرَفَ الأمينُ إلى حَياةِ اللهْوِ والعَبَثِ، وأهمَـلَ أُمورَ الدَّولةِ المُترامِيَةِ الأطرافِ. كما غَدَرَ بأخيهِ المأمونِ ونَزَعَ مِنهُ ولايةَ العهدِ وجَعَلَها لِولَـدِه الصَّغير مـوسى مِنْ بَعْـدِه، وزَادَ هَذا مِنَ الانْقِسَـامِ القَائِمِ بينَ الأَخَـوَيْنِ، واندَلَعتْ الحُرُوبُ بَيْنَ أَنْصارِهما وَقُتِلَ الأَمينُ بِنَتيجَتِها، وانْتقلَتْ السُّلطَةُ إلى المأمُونِ.

ولعـلَّ هذا الانْقِسـامَ بينَ أفـرادِ الأُسـرةِ العبّـاسِيَّـةِ الحـاكمةِ جعـلَ الأمينَ وأعوانَـهُ يَنْصَرِفـونَ عن مُـراقبَـةِ

الإمامِ الرِّضا (ع)، مِمّا هَيّأَ لهُ فُرصةً هادِئَةً، انْصرَفَ فيها إلى أداءِ رِسالَتِهِ ونَشْرِ مَبادئِ الإسلامِ.

وكانتْ هذه الحروبُ الدَّمَوِيَّةُ بينَ الأَخَوَيْنِ مثارَ تَأَمُّلٍ وتَفكيرٍ عندَ النّاسِ، الّذينَ وَجَدُوا فيها الدَّليلَ على أَنَّ الأخَوَيْنِ كِلَيْهما لا يَليقانِ بِحُكْمِ العالَمِ الإسلامِيِّ، وبَدأَ الالْتِفافُ مُجَدَّداً نحوَ العَلَوِيِّينَ. إضافةً إلى نَقْمةِ العَبّاسِيِّينَ أَنْفُسِهِم على المأمونِ لِقَتْلِهِ أخاهُ.

الرِّضا (ع) والمأمونُ

جعَلَ المأمونُ مَركزَ حُكمِهِ في مَدينةِ «مَرْو»، اعتِرافاً بِفضلِ الخُراسانِيِّينَ الّذينَ ساعدُوه في الوُصولِ إلى الحُكمِ، ولمْ تَمْضِ على حُكْمِهِ سَنَةٌ حتّى بدأَتْ الاضْطِرابَاتُ تَعُمُّ أطرافَ البِلادِ، وقامَتْ الانْتِفاضَاتُ في كُلِّ مَكانٍ يَقودُها العَلَوِيّونَ الثّائِرونَ، واشْتَعَلَتْ الثَّوراتُ في مَكَّةَ والمَدينةِ واليَمنِ والبَصرةِ والكُوفَةِ. وأَحَسَّ المأمونُ بالخطَرِ يُحاصِرُه في كُلِّ مَكانٍ، وشعرَ بِحَرَجِ مَوْقِفِه، فلمْ يَجِدْ وسيلةً أَجدى وأَنفَعَ من تَظاهُرِهِ بالرَّغبةِ في التَّنازُلِ عن الخِلافَةِ إلى الإمامِ الرِّضا (ع)، فَيُرضِيَ بِذلكَ العَلَوِيِّينَ الّذينَ يَقودُونَ الثّوراتِ ضِدَّ حُكمِهِ، ويَميلَ بِهِمْ إلى الهُدوءِ، وكانَ



يَعلَمُ أنَّ الإمامَ سَيَرفُضُ ذلكَ رَفْضاً قَاطِعاً، لكِنَّ وزيرَهُ الفضلَ بنَ سَهلٍ شَجَّعهُ على ذَلك.

كتبَ المأمونَ إلى الإمامِ الرِّضا يَستَدعيهِ إلى خُراسَانَ، وَيَسْتَقْدِمُهُ لزيارَتِه في «مَرْو»، فكانَ الإمامُ يَتَمَنَّعُ ويَتَعلَّلُ بِعِلَلٍ مُختَلِفةٍ، لكنَّهُ أمَامَ إلحاحِ المأمونِ المُتكَرِّرِ، لم يرَ بُدّاً منَ الاسْتِجابَةِ لِدَعوَتِهِ والذَّهابِ إليهِ، وكانَ الرِّضا عليهِ السّلامُ يَعرِفُ تَماماً أنَّ ابنَ الطّاغِيةِ هارونَ الرَّشيدِ لا يُمكِنُ أن يُكِنَّ المحبَّةَ لابنِ مُوسى الكاظمِ ، لكنَّهُ لم يَجِدْ بُدّاً منَ الاسْتِجابَةِ، بعدَ أنْ تأكَّدَ أنَّ المأمونَ لنْ يَكُفَّ عنهُ.

سَفرٌ لا عَوْدَةَ منهُ

رافقَ الإمامُ الرِّضا رُسُلَ المأمونِ إليهِ مُحاطاً مِنْهمْ بالتَّعظيمِ والإجلالِ وسارَ معهُ بعضُ أعيانِ المَدينةِ وأشرافِها، وتحرَّكَ الموكبُ في طريقِه إلى خُراسانَ. مُتَجَنِّباً المُرورَ بالمَناطِقِ التي يَكثُرُ فيها مُحبُّو الإمامِ وأنصارُه، كقُمّ وغيرِها من المُدنِ، وذلكَ بأمرٍ منَ المأمونِ نَفسِهِ، ورَغمَ ذَلكَ فقدْ كانَ النّاسُ يَخرُجونَ لاسْتِقبالِ رَسولِ اللهِ بكلِّ شَوْقٍ، ويُهَلِّلونَ مُكَبِّرينَ لِرُؤيَتِه، ويَتزاحَمُونَ للتَّزَوُّدِ مِنهُ بِنظْرَةٍ.



لاحظَ الإمامُ عليهِ السّلامُ أنَّ هُناكَ مُحاولةً للتَّفـريقِ بينَـهُ وبينَ النَّـاسِ ، فكـانَ يَتحَيَّنُ الفُـرَصَ للتَّحـدُّثِ إليهمْ. ولمّا وصلَتْ قافِلتُـه إلى «نَيْسابُـورَ» خرجَ أَهلُهـا لاسْتِقبـالِـه، وهمْ الّـذِينَ كـانَتْ رُؤيَــةُ حَفيـدِ رَسـولِ اللهِ (ص) حُلُماً بالنِّسبَةِ إليهمْ، وها هيَ عُيونُهم تَكتَحِلُ بِمـرآهُ، فـالأمـرُ واقـعٌ وحَقيقَــةٌ وليسَ حُلُمـاً، وزَحَفتْ المـدينةُ بِـرِجالِهـا ونِسائِهـا لاسْتِقبالِـه، دونَ أنْ يَنتَظِروا وصُولَه إليْهِم، فالشَّوقُ عَظيمٌ والحَدَثُ كَبيرٌ.

كانَ عُلماءُ المـدينةِ وأعيـانُها يتـطَلَّعونَ إلى فُـرصَةٍ تُمكِّنُهمْ مِنْ سَماعِ حَديثِ الإمامِ ، لكنَّ غلَيانَ النّـاسِ وحَـرارةَ اسْتقبـالِهمْ لَمْ تُمكِّنْهُم منْ ذلـكَ، فصـرَخُـوا بـالنّـاسِ يَـدعـونَهمْ إلى الهُـدوء. وبعـدَ أنْ صمَتَ الجَميـعُ، رَفعَ الإمـامُ سَتـائِرَ هَـوْدَجِـهِ، وأطَـلَّ عليهِمْ بوجْهِهِ الصَّبوحِ ، فارتَفَعتْ أصواتُهُمْ من جَديدٍ، لكِنَّهمْ بـإشارَةٍ مِنـهُ عَادُوا إلى الهُـدوءِ، وتَـوَجَّـهَ الجَميـعُ إليـهِ بأسماعِهم يلتَقطونَ كُلَّ حَرفٍ يَقولُه، وكانَ على الإمامِ أنْ يَقُـولَ لهمْ كُـلَّ شَيءٍ. وعَليـهِ أنْ يَتَـوخّى الحِكمَــةَ والحَذَرَ، وأنْ يُوجِزَ في حَديثهِ لِأنّ الفُرصةَ قَصيرةٌ. قالَ عليهِ السَّلامُ:

حــدَّثَـني أبـي مُــوسـى الـكــاظِـمُ، عــنْ أبـيــهِ جَعفرِ الصّادقِ، عن أَبيـهِ مُحَمَّدٍ البـاقِرِ، عنْ أبيـهِ عَليٍّ زينِ العابدينَ، عن أبيه الحُسيْنِ شَهيدِ كَربلاءَ، عن أبيهِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ أنهُ قالَ:

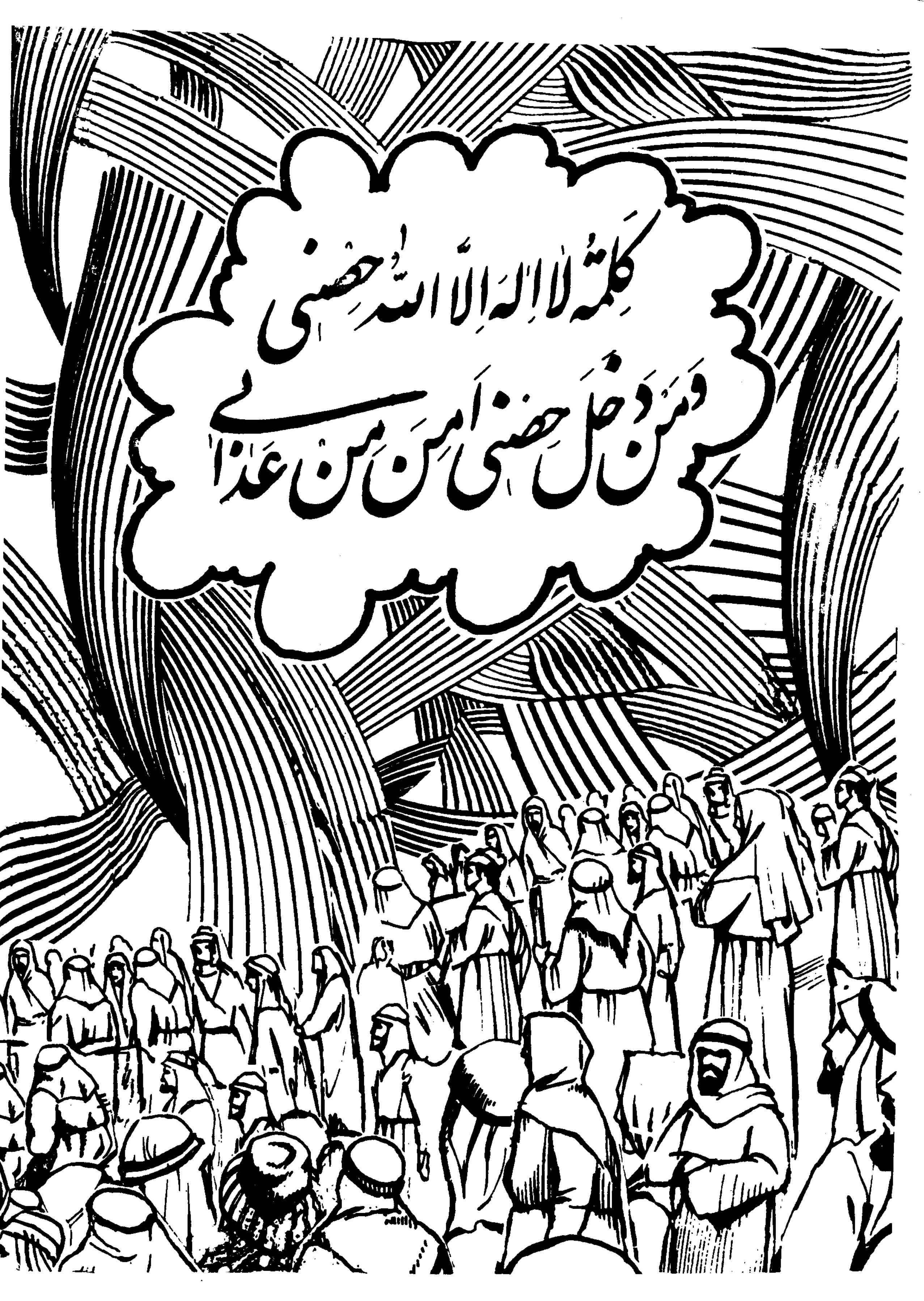
حَــدَّثَني حَبيبي وقُـرَّةُ عَيني رســولُ اللهِ (ص) عنْ جَبَرئيلَ أَنَّه قالَ: سمعتُ رَبَّ العِزَّةِ سُبحانَهُ يَقولُ:

«كَلِمَـةُ لاَ إِلَـهَ إِلاّ اللهُ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَـلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي».

كتبَ الألـوفُ من رُواةِ الحديثِ قـولَ الإمـام عليـهِ السّــلامُ، وهــوَ مِنَ الأَحــاديثِ المتَّفَـقِ عليـهــا بيــنَ المُحَــدِّثينَ، وهـوَ منْ رِوايــةِ الـطّاهِــرينَ عن آبـائِهمْ الـطَّيبينَ، وكـانَ بعضُ السُّلَفِ يَقـولُ: لَـوْ قُـرِئَ هــذا الإِسنادُ على مَجنونٍ لأَفاقَ.

وتَحــرَّكَ الإمامُ مِنْ «نَيْســابُـورَ» لِيُتـابِـعَ رِحلَتُـه إلى «مَرْو»، حيثُ المَأمـونُ يَستَعِدُّ لاستقبـالِه والحَفـاوةِ بِه، ولمّـا وصَلها أنـزَلَهُ مَنـزِلاً كَريمـاً، مُحاطـاً بِكُلِّ مَـظاهِرِ التَّقديرِ والاحْتِرامِ.

اسبشَـرَ النّـاسُ خَيـراً بِمقَـدمِ الإمــامِ (ع)، فقَـد تخَيَّلُوا أنَّ المـاضِيَ البَغيضَ قـد ولّى إلى غيـرِ رجعـةٍ،


كَلِمَةُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ حِصْنِی
وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِی اَمِنَ مِنْ عَذَابِی

وأَنَّ أيامَ الخِلافِ والاقْتِتالِ قدْ انْتهتْ، فها هُوَ المأمونُ يَستَعدُّ لإرجاعِ الحقِّ إلى أَصحابِه، وها هُوَ صاحبُ الحَقِّ قد أقبَلَ، وسَتَغدُو الأيّامُ رَخِيَّةً سَهلَةً، لَكِنَّهم كانُوا واهِمينَ، فالإمامُ عليهِ السّلامُ يَعرِفُ حَقَّ المَعرِفَةِ أنَّ المأمونَ غَيرُ جادٍّ في عَرْضِهِ، وأنَّهُ يَتَظاهَرُ بالرَّغْبَةِ في التَّنازُلِ عنْ الحُكمِ لأَمرٍ في نَفسِهِ، وإذا تجاوَزْنا المأمونَ إلى بِطانَتِهِ وأجْهِزَتِهِ حولَهُ، لَرأَينا أنَّهمْ أحرصُ على المُلْكِ والجاهِ والدُّنيا، لِذا فقدْ رفَضَ الإمامُ عَرْضَ المأمونِ، فما كانَ مِنَ المأمونِ إلاّ أن عَرَضَ عليهِ وِلايَةَ العَهْدِ بَعدَهُ، والعَرْضُ الجَديدُ لم يكنْ حُبّاً بالإمام، ومَيْلاً إلى الحقِّ، بل هو تَغطِيَةٌ لمآرِبَ أخرى، فالمأمونُ يَرمِي منْ وَرائِه لِلحصولِ على شَرعِيَّةٍ لِحُكمِهِ، كما يَرمِي إلى إسكاتِ الثّائرين عَليهِ، ومَرَّةً ثانيةً يَرفُضُ الإمامُ عَرْضَهُ، فَيُلِحُّ المأمونُ ويُهدِّدُ، وَيُمعِنُ في تَهديداتِهِ حتّى التلويحِ بالقَتْلِ، بلْ التّصريحِ بهِ، وَيُروى أنَّ المأمونَ قالَ للإمامِ حينَ رأى امتِناعَهُ عَنْ القَبولِ بما يَعرِضُهُ عَليهِ: إنَّكَ تَتَلقّاني أَبداً بما أكرَهُهُ، وقَدْ أَمِنْتَ سَطْوَتي، فَبِاللهِ أُقسمُ لَئِنْ قَبلتَ وِلايةَ العَهدِ وإلاّ أَجْبَرتُكَ على ذَلكَ، فإن فَعلتَ وإلاّ ضَربْتُ عُنُقَكَ.

كانَ الإمامُ عليهِ السَّلامُ يتوقَّعُ كُلَّ هذا، كانَ يَعْرِفه حينَ دخَلَ مَسجِدَ جَدِّهِ الرَّسولِ في المدينةِ يُوَدِّعُه، ويَقُولُ وهُو يَبكي: إنِّي أَخْرُجُ منْ جِوارِ جَدّي رَسولِ اللهِ (ص)، وأَموتُ في غُربَةٍ. كانَ يُدرِكُ ذَلكَ وهوَ في طَريقِهِ منَ المدينةِ إلى خُراسَانَ مَغْلوباً على أمرِهِ.

وَأخيراً فلمْ يَجدْ أَمامَ إلحاحِ المأمونِ وتَشَدُّدِهِ بُدّاً منَ القَبولِ، إنّما بِشروطٍ لا مَناصَ مِنْها، فقالَ للمأمونِ: أنا أقبلُ ذلكَ على أنْ لا أُوَلِّيَ أَحَداً، ولا أعزِلَ أَحَداً، ولا أَنْقُضَ رَسْماً ولا سُنَّةً، وأَكونَ في الأَمرِ منْ بَعيدٍ مُشيراً.

رَضِيَ المأمونُ، وتمَّتْ البَيْعةُ للإمامِ بِولايةِ العَهدِ، بِحضورِ الوُزراءِ والقادةِ والأَعيانِ، وحَشْدٍ كَبيرٍ منَ النّاسِ. وَوَزَّعَ المأمونُ الأموالَ والهَدايا عَليهِم، وتَزاحَمَ الشُّعَراءُ على تَقْديمِ مَدائِحِهِمْ.

وبِهذِه المُناسَبَةِ ضرَبَ المأمونُ الدَّراهِمَ وطبعَ عليها اسمَ الرِّضا (ع). وصارَ الخُطباءُ يَفتتِحُونَ خُطَبَهمْ بالدُّعاءِ لِلمأمونِ والرِّضا (ع).



وَفي خُراسانَ عَقدَ الإمامُ مَجالسَ المُناظَرةِ معَ العُلماءِ والأَطِبّاءِ وغيرِهِمْ ، فكانَ عِلمُهُ وسَعةُ اطِّلاعِهِ مَبْعَثاً لِعَجَبِهِم ، وكانَ المأمونُ يَحضُرُ بعضَ هذهِ المَجالِسِ ، ولا يَستطيعُ أنْ يُخْفِيَ غَيظَهُ وحَسَدَهُ لِمكانَةِ الإمامِ ، رَغمَ ادِّعائِـهِ تشجيعَ العُلومِ والأَبحاثِ، وكانَ الإمامُ حينَ يَرى منهُ ذلكَ، يَختَصِرُ أَحاديثَهُ ويُوجِزُها ما أمكَنَهُ، خاصَّةً وأَنَّهُ أدركَ أنَّ الموكَلينَ بِأُمورِهِ وقَضاءِ حَوائِجِه كانُوا في الحقيقَةِ عُيوناً للمأمونِ عَلَيْهِ، فَكانَ عليهِ السّلامُ يتلَوّى منَ الألمِ ، ويَتمنّى لنفسِه الموتَ لِيتخلَّصَ منْ حياةٍ تحيطُ بها المَكارِهُ، وكانَ يقولُ: اللّهمَّ إنْ كانَ فَرَجي مِمّا أنا فيهِ بِالموتِ فَعَجِّلْهُ لِيَ السّاعَةَ.

صَلاةٌ لم تَتِمَّ:

لمّا حضرَ عيدُ الفِطرِ في السّنةِ الّتي عَقدَ فيها المأمونَ وِلايةَ العَهدِ للإمامِ الرِّضا عليهِ السّلامُ، أرسلَ إليهِ بالرُّكوبِ إلى العيدِ والصّلاةِ بالنّاسِ والخُطبةِ بِهم، فبعثَ إليهِ الإمامُ الرِّضا: لقد عَلِمْتَ ما كانَ بَيني وبَينكَ منَ الشُّروطِ في دُخولِ هذا الأمرِ (يَعني قبولَهُ لِولايَةِ العَهدِ)، فأَعْفِني منَ الصَّلاةِ بالنّاسِ . فألَحَّ عليهِ المأمونُ وقالَ له: أُريدُ بذلكَ أنْ تَطمَئِنَّ إليكَ قُلوبُ النّاسِ ، ويَعرِفُوا فضلَكَ. فأجابَهُ الإمامُ إلى طَلبِهِ على شَرطِ أنْ يَخْرُجَ إلى الصّلاةِ كَما كـان يَخرُجُ إليهـا

رسولُ اللهِ وأميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ منْ بَعدِه، فقالَ لهُ المأمونُ: اخرُجْ كيفَ شِئْتَ. ثُمَّ أمرَ القُوّادَ والحُجّابَ والنّاسَ أَنْ يُبكِّروا إلى بابِ الرِّضا (ع)، لِيُرافِقوهُ إلى الصَّلاةِ.

وصَباحَ العيدِ وقَفَ النّاسُ في الطُّرُقاتِ وعَلى السُّطوحِ يَنتَظِرونَ خُروجَهُ، وَوقفَ الجندُ والقادَةُ على بابِه وَقد تزَيَّنوا ورَكِبُوا خُيولَهم. قامَ الإمامُ فاغْتَسَلَ ولَبِسَ ثِيابَهُ، وتَعَمَّمَ بِعَمامةٍ بَيضاءَ مِنْ قُطنٍ، فألْقى طَرَفاً مِنها على صدره وطَرَفاً بينَ كَتِفَيه، ومَسَّ شَيْئاً مِنَ الطِّيبِ، وقالَ لمنْ مَعهُ: افْعَلُوا مِثلَ ما فَعلتُ، فَخرَجُوا بينَ يَديهِ وهُوَ حَافٍ قَدْ شَمَّرَ سَراويلَهُ، فرفَعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ وقالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَكبَّرَ معهُ النّاسُ، ولما رآهُ القادَةُ والجندُ على تِلكَ الصّورَةِ، تَرَجَّلُوا عن خُيولِهِم، ونَزَعُوا أَحذِيَتَهُم من أَرجُلِهِم، ومَشَوْا خلفَهُ حُفاةً، ثُمَّ كَبَّرَ الرِّضا عليهِ السَّلامُ، وكَبَّرَ معهُ النّاسُ، وارتَفعتْ أصْواتُهم بالتّكبيرِ حتّى سُمِعَتْ مِنْ كُلِّ الجهاتِ، وضَجَّتْ المدينةُ بالمُكَبِّرينَ، وخرجَ النّاسُ مِن مَنازِلِهِمْ، وازْدَحمتْ بِهمْ الشَّوارِعُ والطُّرقاتُ بِشكلٍ لم تَشهَدْهُ «مَرْوُ» منْ قبلُ، وصدقَ فيه قَولُ الشّاعِرِ:

ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبيَّ فَهَلَّلُوا لَمّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ وَكَبَّرُوا

حَتّى انْتَهيْتَ إلى المُصَلّى لابِساً نُورَ الهُدَى يَبْدُو عَلَيْكَ ويَظْهَرُ
وَمَشَيْتَ مِشْيَةَ خاشِعٍ مُتَواضِعٍ للهِ لاَ يَـزْهُـو ولاَ يَتكَبَّـرُ
وَلَوَ أنَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

كانَ المأمونُ يُريـدُهُ أنْ يَخرُجَ لِلصَّـلاةِ كَما يخـرُجُ المُلوكُ، تَحُفُّ بِهِمْ الزِّيناتُ ومَعالِمُ العَظَمَةِ، ويَستَغِلّونَ المُناسَبَةَ لِعَرضِ قُوَّتِهِمْ وهَيْبَتِهِم في النفُوسِ، بَيْنَما يَرى الإمامُ أَنَّ لِلمُناسَبَةِ قَداسَتَها الرُّوحِيَّـةَ، تُرفَعُ فِيها آيـاتُ الخُضُوعِ والعُبودِيَّةِ للهِ تَعالى، وتَرتَفِعُ الأَصواتُ بِحمْدِهِ والتَّكْبيرِ لَهُ، وشَتّانَ بينَ ما أَرادَ المأمونُ وما فَعَلَهُ الإمامُ، فَما كانَ مِنَ المأمونِ إلاّ أنْ بَعَثَ إليهِ يَقولُ:

لَقَدْ كَلَّفْناكَ شَطَطاً (أيْ زِيادةً عنْ الحدِّ) وأَتْعبْنَاكَ يا بْنَ رَسـولِ اللهِ، ولَسْنا نُحبُّ لَـكَ إلاّ الـرّاحـةَ، فـارْجِـعْ، ولْيُصَلِّ بِالنّاسِ مَنْ كانَ يُصَلِّي بِهِمْ.

فَرَجَعَ الإمامُ (ع)، لأَنَّ هذا هُوَ ما يَتمنّاه.

أموتُ في غُربَةٍ

منذُ ذلكَ اليومِ، وقدْ رأى المأمونُ تَجاوُبَ النّاسِ مَعَ الإمامِ، وكيفَ كانَ تَوَجُّهُهُمْ إليهِ عَميقاً، أَحسَّ بالمَرارَةِ تَغلي في أَحْشائِه، وتَذكَّرَ أيامَ أَبيهِ هارونَ الرَّشيدِ مَعَ الإمامِ

الكاظمِ عليهِ السّلامُ، وكانَ يَرى حَفاوَةَ الرَّشيدِ البَـالِغَةَ بالإمامِ ، وَإكرامَهُ لهُ، وهو(أيْ المأمونُ) لايَعْرِفُهُ، فَسأَلَ أباهُ قائِلاً: منْ هَذا الرَّجُلُ الّذي عَظَّمتَهُ وقُمْتَ مِنْ مَجلسِكَ لأجلِهِ، وَجَلَسْتَ بينَ يَدَيْهِ؟ قالَ الرَّشيدُ: هذا إمامُ النَّاسِ ، وحُجَّةُ اللهِ عَلى خَلقِهِ، وخَليفتُهُ على عِبادِه. فقالَ المأمونُ: ألَيْستْ هذهِ الصِّفاتُ كُلُّها لكَ وَفيكَ؟! فقالَ: أنـا إمامُ الجَماعةِ في الظّاهِرِ بالغَلَبَةِ والقَهْرِ، وَموسى بنُ جعفرٍ إمامُ حَقٍّ، واللهِ يابُنيَّ إنّهُ لأَحَقُّ بِمَقامِ رَسولِ اللهِ مِنّي ومِنَ الخَلْقِ أَجمعينَ، فقالَ لهُ المأمونُ: إذَا كُنتَ تَعرِفُ ذلكَ فَتَنَحَّ عنْ المُلكِ وسَلِّمهُ لأَصحابِهِ، فقالَ: يابُنيَّ إنَّ المُلكَ عَقيمٌ، واللهِ لو نَازَعْتَنِي فِيهِ لأَخَذْتُ الّذِي فيهِ عَيْنَاكَ.

تَذكَّرَ المأمونُ هذهِ الواقِعةَ معَ أبيهِ، ولا يزالُ صَدى العِبارَةِ الأَخيرةِ يَرِنُّ في مَسامِعِهِ: واللهِ لو نَازَعْتَنِي فِيهِ لأَخَذْتُ الّذي فِيهِ عَيْنَاكَ.

وَمالهُ يُسلِّطُ على هَذا المُلْكِ رَجُلاً يَلتَفُّ النّاسُ حولَهُ إذا حَضَرَ، وتَهفُو إليهِ قُلوبُهُمْ إنْ غابَ، يُجِلّونَهُ وَيقَدِّرونَه؟! أَلَيسْ أبـوهُ الّذي قـالَ: إنَّ المُلْكَ عَقيمٌ؟ أَليسَ بِالأَمسِ القَـريبِ قتَـلَ أخـاهُ وعَشَـراتِ الأُلـوفِ منَ النَّـاسِ في سَبيلِ هَذا المُلكِ؟

تَذكَّرَ كُلَّ هَذا وصمَّمَ أمْراً، صَمَّمَ أنْ يُريحَ نَفسَهُ منْ هَذا الهَمِّ الّذي جَلَبَهُ على نَفْسِهِ بِيَدَيْهِ، وقَرَّرَ أنْ يَتخلَّصَ مِنَ الإمام.

ولَمْ يَطُلْ الأمرُ كَثيراً، وكانَ قد مَضى على الإمامِ في وِلايةِ العَهدِ ما يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ، حينَ اسْتُشْهِدَ مَسْموماً، واتُّهِمَ المَأمونُ بِقَتْلِهِ، لَكِنَّهُ أنكَرَ التُّهمةَ، وأَظْهَرَ عليهِ الأَسى والحُزنَ. وكانَ اسْتِشهادُهُ سنةَ ٢٠٣ للهجرةِ بِطوس، ودُفِنَ في مَشْهَدَ. ويَخْتَلِفُ النّاسُ لِزيارةِ قَبرِهِ منْ جَميعِ أنحاءِ العالَمَ. ويُروى عنهُ أنَّه قالَ: مَنْ زارَني في غُربَتي كانَ مَعي في دَرَجَتي يَومَ القِيامَةِ.

عَلَيْهِ وعلى آلِهِ أَفضلُ الصَّلاةِ وأزْكَى السّلامِ.

* * *